المرأة العربية والتعليم

الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

كان المجتمع العربي قبل الاسلام في الجزيرة العربية يقوم على سيادة الرجل في الاسرة ، ولكن مع هذه الحقوق للرجل فقد كانت للمرأة مكانة كبيرة تتناسب وعظم المسؤوليات التي تقوم بها،فهي تقوم بقسط كبير من العمل في البيت ، وانها هي الوسيلة الوحيدة لانتاج الرجال الذين يزيدون من قوة القبيلة في السلم والحرب ، كما انها كانت تسهم في اثناء الحرب برعاية المقاتلين كتقديم الماء والزاد وتضميد الجرحى وتشجيع الرجال على القتال ، اضافة الى انها كانت مصدر ربح لوليها الذي يأخذ عند زواجها صداقاً ، وهي ايضاً توحي الى الشعراء بالخيال والى الرجال بالطموح ، وقد اعطتها هذه الاعمال والصفات مكانة مرموقة في المجتمع . وللدلالة على احترامها من قبل المجتمع من مخاطبتها بـ(الحرمة) والتي جاءت من (الاحترام) وبربة البيت كدليل على تقدير مكانتها فيه ، كما انها كانت تقوم بدور سياسي واجتماعي مهم فالزواج يؤدي الى ترابط الاسر البعيدة وقد يؤدي الى ترابط القبائل بعضها مع بعض ، فان رابطة الفرد مع عشيرة اخواله قد لا تقل قوة عن رابطته مع اعمامه وفي هذا اثر كبير في التقارب بين ابناء المجتمع العربي .

هذه المكانة الاجتماعية الكبيرة للمرأة العربية حملت البعض من الرجال الى تسمية اولادهم باسماء امهم ،وقد ألف محمد البكري كتاباً قيماً عنوانه(من سمي باسم امه من الشعراء)، وجدير بالذكر ان العرب سموا بعض الالهة باسماء مؤنثة كالعزى ومناة ونائلة واسافة ، وكثير من القبائل العربية تسمى ايضاً باسماء مؤنثة كمزينة وعائدة وعاملة وكندة وبطرا وتدمر كما ان اغلب الاشياء المهمة في الحياة كالشمس والارض مؤنثة ،هذا الى ظهور شخصيات نسوية بارزة ظهرت في المجتمع العربي في الدين والسياسة والاداب كالزباء التدمرية وسجال التميمية وهند زوجة ابي سفيان وخديجة زوجة النبي (ص) وسكينة بنت الحسين وخولة بنت الازور والخنساء . كما برز بعض منهن في الحكمة والمعرفة ،يذكر بروكلمان انه اذا نشب خلاف بين افراد ينتمون الى قبائل مختلفة يلجأ المتخاصمون الى

الى رجل مشهود له بالتعقل والحكمة او الى امرأة تماثل هاتين الميزتين . (١) وبالغ الاسلام في تكريم المرأة مـا لم يبلغه اي نظـام اجتماعـي اذ اعترف بأهليتها في الحقـوق المدنية والماليـة ولم يفـرق بينهـا وبين الرجـل في المجـال الانسـاني والاجتماعـي واوصى القـرآن الكريـم الآبـاء خيراً بالبنات كما أكد النبي على عدم ايثار الآباء بنيهـم على بناتهـم ولاسيماني العطاء.فقال (ص) ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلا أحداً لفضلت النساء (٢) كما لم يأذن الرسول لوليها أن يجبرها على الزواج والايتدخلوا في مهور بناتهم فقال تعالى (وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ،اتأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً) (٣) وأكد الاسلام على ضرورة قيام ولي أمرها بتعليمها وحسن تربيتها فقال (ص) « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » (٤) .

ومع ظهور الاسلام كانت الدعوة إلى التعليم ملازمة لمبادىء الاسلام وكانت اولى الآيات القرآنية تدعو إلى القراءة والتعلم فقال تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) وجعل القرآن الكريم للمتعلم منزلة أعلى من خيرة الناس فقال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات)(٥) كما اعتبر القرآن الكريم التعلم من وظائف النبي (ص) قال تعالى (وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم (٦) وقد عني الرسول بتعليم المسلمين الاولين وبلغ من اهتمامه في ذلك أنه طلب من اسراه في بدر ممن لم يستطع أن يفدي نفسه بالمال أن يعلم كل واحد عشرة من صبيان المدينة .(٧)ورغم أن الاسلام سوى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات فان

(١) كارل بروكلمان–العرب والامبراطورية العربية (تاريخ الشعوب الاسلامية) ص١٧ دار العلم للملايين – بيروت .
(٢) رواه الطبراني في الجامع الصغير .
(٣) سورة النساء آية ٢٠ .
(٤) السخاوى المقاصد الحسنة ص ٢٢٧ .
(٥) سورة المجادلة آية ١١ .
(٦) سورة البقرة آية ١٢٩ .
(٧) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص١٦٨ مطبعة العاني ١٩٦٠ .

المسلمين اختلفوا حول ضرورة تعليم المرأة وكانوا في ذلك فريقين : فريق يقول بعدم تعليم المرأة غير الدين والقرآن وينهى عن تعليمها الكتابة ،وفريق آخر يقول بتعليم المرأة مستنداً إلى بعض الاحاديث من تلك الاحاديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) ومما يذكر عن الرسول أنه حض على تعليم أزواجه الكتابة ،الا أن الرأي الثاني القائل بتعليم المرأة انتصر ولاسيما في مرحلة النهوض والقوة الحضارية التي عرفها العرب .(١)

ولم يكن تعليم المرأة في الاسلام بدعة فالمعروف أن كثيراً من النساء نبغن في العلم والأدب والشعر وجاء ذكرهن في كتب الأدب والتاريخ ولكن المسألة هي الزام تعليمهن لاعلى سبيل الزينة بل على الوجوب الديني ،فليس مايمنع من تعليمهن كما يتعلم الصبيان وليس مايمنع من ذهابهن إلى الكتاتيب في الصغر ، فانتشار التعليم في البنات روح جديد لم يكن معهوداً في الزمن الأول للاسلام، ثم عدد البلاذري بعض النساء الكاتبات فهن حفصة زوجة النبي وأم كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد التي قالت : علمني ابي الكتاب (٢) .

وقد عقب محمد بن سعد جزءاً من كتاب (الطبقات الكبرى) لرواية الاحاديث عن النساء اتي فيه على أكثر من سبعمائة امرأة روين عن الرسول أو عن الثقات أو عن الصحابة وترجم ابن حجر حياة ١٥٤٣ محدثة وقال عنهن إنهن كن ثقات عالمات (٣) وقد عد ابن عساكر اساتذته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم فكان من بينهم احدى وثمانون امرأة (٤) .

وقد سار الخلفاء الراشدون على مسيرة الرسول في سياسته التعليمية فيروى أن عمر بن الخطاب جعل في المدينة رجالاً يفحصون المارة فمن وجده غير متعلم أخذه الى الكتاب ، ويظهر أن الفقراء كانت لهم أماكن يدرسون فيها يسمى (كتاب السبيل) كما أن الكتاتيب كانت لأولاد العامة ولأولاد الخاصة فجاء في

(١) عبد الله عبد الدائم التربية عبر التاريخ ص ٢٢٣ .
(٢) البلاذرى فتوح البلدان ص ٤٥٨ .
(٣) الاصابة في تمييز الصحابة جـ٤ ص ٤٢٤ .
(٤) ياقوت معجم الادباء جـ٤ ص ١٤٠ .

الأغاني أن البنات يذهبن إلى الكتاب بالكوفة كما روى أن بعض المؤدبين كانوا يعلمون الصبيان والبنات في موضع واحد (١) ولم يكن اهتمام عمر بن الخطاب بنشر التعليم في المدينة فقد كتب الى الامصار الاسلامية يحثهم فيها على التعلم فجاء في رسالة عمر إلى أهل الكوفة ، اني بعثت اليكم بعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً وآثرتكم به على نفسي فخذوا منه ... (٢) .

لقد كانت لحركة التحرير العربي أثرها العميق في تطور الحياة الاجتماعية والعلمية فقد سارت حركة تعريب المجتمع عامة والمرأة خاصة فقد كان الاسلام والتعريب على السواء يطبع حياة المجتمع الجديدة بطابع العروبة حتى يوشك أن ينسى الاقوام غير العربية وخاصة الفرس اصولهم الأولى التي جاءوا منها وكان ذلك نتيجة مرافقة حركة التحرير السبي من النساء والاطفال والذراري فاما النساء فان الحياة المنزلية كانت كفيلة في تعريبهن وكان ابناؤهن يوشك على المدى القريب والبعيد ان يؤولوا إلى عروبة خالصة وذلك لسكناهم في الجزيرة أو في المدن التي سكنها العرب ، فالزواج بالكتابيات الفارسيات والروميات قد اباحها الاسلام وقد اقبل العرب على الزواج بهن ، وكان طبيعياً ان يصحبوا ازواجهن في مستقراتهم ، كما امتدت حركة التعريب إلى الموالي (وهم المسلمون من غير العرب) فقد اسلم اعداد كبيرة من أهل الذمة واندفعوا تقريباً للفاتحين لأسباب مختلفة على تعلم العربية حذقاً واجادة واسهموا في نشر اللغة العربية وآدابها (٣) وقد امتدت حركة التعليم الى تعليم الجواري القراءة والكتابة . وقد عني بتعليم الجواري ، اكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر وكان هذا التعليم يزيد من قيمهن اضعاف ثمنهن فكانت تعلم الادب والغناء والموسيقى (٤) بينما نجد كثيراً من الحرائر يشتغلن ببعض العلوم ، ولكن اكثر مااشتغلن به كان الباعث عليه دينياً كالحديث والتصوف (٥) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٠ .

(٢) أحمد أمين فجر الاسلام ط٣ مطبعة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥ .

(٣) شكري فيصل المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري ص ١١١ .

(٤) أحمد أمين ضحى الاسلام ج١ ص ٩٨ .

(٥) المصدر السابق ج١ ص ٩٩ .

فالتعليم اذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التي تهدف اليها الدعوة الاسلامية لأن النبي (ص) كان يستهدف بناء امة جديدة ، ولا بد من وجود طبقة متعلمة (من كلا الجنسين) متنورة تتحمل عبء الدعوة (١) .

فكان المسجد المعهد الاول للتعليم في صدر الاسلام ، وانتشرت المساجد في جميع انحاء العالم الاسلامي وقامت بدورها ورسالتها الدينية والتهذيبية والتعليمية،وأصبحت بعض المساجد اشبه بالاكاديميات الثقافية حيث تعقد فيها حلقات العلم فيها يتناظر العلماء في اللغة والادب والشعر والفقه والحكمة والمنطق وعلم الكلام (٢) وكانت للمرأة العربية دور كبير في هذه المجالس .

لقد وصف القرآن الكريم العرب المعاصرين للرسول بالعلم فقال تعالى (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) ووصفهم بأنهم كانوا يعرفون القراءة فقال تعالى (حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه) فكانت الكتابة والقراءة منتشرتين بين العرب قبل الاسلام بدليل ماورد من آيات كثيرة ذكرت فيها أسماء أدوات الكتابة والقراءة ووسائلهما كالقلم والكتاب والرق والصحف ويتلقى ويقرأ ويجلى ويسطروه .

ومن المراكز المهمة للتعليم اضافة إلى المسجد الكتاتيب التي وجدت قبل الاسلام ثم اصبحت بعد ظهور الاسلام المكان الرئيسي للتعليم وكانت لها أهمية في تعليم الصغار القرآن ولأن تعليم الاطفال القرآن بصفة خاصة كان أمراً عظيم الخطر في الاسلام حتى لقد اعتبره كثير من العلماء فرضاً من فروض الكتابة (٣) .

كما وجد نوع من التعليم الابتدائي في قصور الخلفاء والعظماء،والمعلم هنا لايسمى معلم صبيان أو معلم كتاب بل يسمى (مؤدباً) .

(١) حسين أمين نشأة الحركة التعليمية مقالة مجلة المؤرخ العربي العدد الرابع ١٩٧٧ص٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١٤ .
(٣) عبد الله الدائم التربية عبر التاريخ ص ١٤٦ .

ومن المعاهد المهمة للتعليم المدرسة ولم تختلف المدارس عن الجوامع أو المساجد لافي بنائها ولا في وظيفتها أو الغرض منها، الا انها كانت أكمل وأوفى باغراض الدراسة المتصلة بها ولسكنى الطلاب المنضوين إلى العلم .

وكان التعليم في العصر الاموى قد بلغ مداه واصبح للبنات نصيب وافر حيث تقوم اغلب الكتاتيب بالتعليم المختلط ، وعرفت للمرأة العربية مكانة سامية في التعليم فقد درست على اشهر المعلمين والمؤدبين وسمعت كثيرات من الشيوخ كما درس كثير من رجال العلم على بعض النساء الشهيرات وسمعوا منهن وحصلوا على اجازاتهن وقد اشتهر بعضهن بانشاء المدارس وتولى مشيخة بعض الربط ، ومن النساء المتعلمات اللاتي كن يكتبن في صدر الاسلام شفاء العدوية وكانت تعلم النساء الكتابة وحفصة بنت عمر زوجة الرسول وريمة بنت المقداد ، ومن شهيرات المتعلمات في العصر الاموي سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة زوجتا مصعب بن الزبير ،ومن النساء من قمن بالمرحلة في طلب العلم منهن ام الدرداء عائشة فقد كانت في خلافة معاوية تقيم ٦ أشهر بالقدس و ٦ أشهر بدمشق وكانت تقول لقد طلبت العبادة في كل شيٍ فما احببته لنفسي بشيٍ أشهر من مجالسة العلماء ومذكراتهم(١) وهند بنت أسماء بن خارجة ، وهند بنت النعمان بن المنذر كما فعلت بمجالس الزهد والصوف بكثير من النساء اللاتي اشتهرن بالزهد والتصوف بجانب الصلاح والتقوى مثل معاذة العدوية ، وبعض نساء الخوارج كالبلجاء وغزالة وخطام وحمادة وكحيلة ، وابرزهن أم الخير رابعة بنت اسماعيل وكانت من اعيان مصرها واخبارها في الصلاح والعبادة (٢).

ومن الدلالة على أهمية النساء أيام نضارة حضارة العرب كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلمية والأدبية فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العباسي في الشرق والعصر الاموي في الاندلس فيذكر أن نساء ذلك العصر الذي

(١) ناجي معروف المدخل في الحضارة الاسلامية ص ١٧٧ .

(٢) ابن خلكان – وفيات الاعيان جـ٢ ص ٤٨ .

كان للعلم والأدب شأن عظيم فيه ببلاد الاندلس كن محبات للدرس في خدورهن، وكان الكثير منهن يتميزن بدماثتهن ومعارفهن ومنهن في قصر الخلافة بني النشأة الجميلة العالمة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم والكتابة البارعة التي كان الخليفة يعتمد عليها في كتابة رسائله الخاصة والتي لم يكن في القصر مثلها دقة في العلم والمعرفة وكانت فاطمة تكتب بدقة نادرة وتنسخ كتباً للخليفة ويعجب جميع العلماء برسائلها وتملك مجموعة ثمينة من كتب الفن والعلوم ،وكانت قديرة في نظم الأبيات الرائعة وتنشدها بصوتها الساحر ،وكانت مريم تعلم بنات الأسرفي اشبيلية العلم والشعر فتخرجت في مدرستها نساء بارعات كثيرات وغيرهن كثيرات (١) وممن اشتهرت برواية الحديث ام عمر الثقفية وعبده الانصارية ، وبرزت زينب الهاشمية وعلية بنت المهدي بقول الشعر ، وممن اشتهرن بالافتاء ام عيسى بنت ابراهيم ،وانة الواحد بنت القاضي الظبي وممن اشتهرن بالوعظ ميمونة بنت ساقولة وخديجة بنت محمد ،وقد ذكر المؤرخون أن ابن النجار أحد شيوخ الحديث بالمدرسة المستنصرية رحل الى الاقطار العربية رحلة استغرقت أكثر من ربع قرن وبلغ عدد النساء العالمات اللائي تلقى عنهن العلم ..٤٠ امرأة(٢) ومن النساء اللائي اشتهرن بانشاء المدارس احدى نساء المعتصم التي انشأت المدرسة البشيرية ،وأنشأت زوجة علاءالدين صاحب الديوان ببغداد المدرسة العصمتية، وتنسب المدرسة العذراوية بدمشق إلى عذراء بنت صلاح الدين الايوبي (٣).

وقد ساهمت المرأة بأعمال كثيرة في شؤون الحرب والطب والغناء والموسيقى وفي السياسة وشؤون الحكم ويكفي أن نذكر في هذا المجال (الخيزران) و(زبيدة زوجة الرشيد(والبانة) كاتبة الخليفة الحكم على أن ميدان العمل اجتذب عددمن النساء كان الاشتغال في التدريس اهمها كما هو عليه الامر في ايامنا .

(١) غوستاف لوبون حضارة العرب ص ٤٠٤ مطبعة عيسى البابي الحلبي .
(٢) ناجي معروف المدخل في الحضارة الاسلامية ص ١٧٨ .
(٣) المصدر السابق ص١٧٩ .